الرجل

الرجل فى سطور :

١٨٥٩ — ولد فى فرمونت فى ٢٠ أكتوبر

١٨٧٥ — تخرج فى المدرسة الثانوية

١٨٧٩ — تخرج فى جامعة فرمونت

١٨٨٤ — حصل على الدكتوراه من جامعة جون هوبكنز

١٨٨٤ — ١٨٨٨ مدرس فلسفة بجامعة متشجان

١٨٨٦ — زواجه من أليس تشابمان

١٨٨٨ — ١٨٨٩ — مدرس فلسفة بجامعة منيسوتا

١٨٨٩ — ١٨٩٤ — أستاذ الفلسفة ورئيس قسم الفلسفة بجامعة متشجان

١٨٩٤ — ١٩٠٤ — أستاذ الفلسفة والتربية بجامعة شيكاغو

١٩٠٢ — ١٩٠٤ — مدير مدرسة التربية بجامعة شيكاغو — إنشاء مدرسة المعمل .

١٩٠٤ — رحلة إلى أوربا — إنجلترا — وإيطاليا

١٩٠٥ — ١٩٣١ — أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبيا — أستاذ بمدرسة المعلمين بجامعة كولومبيا

١٩١٩ — رحلة إلى اليابان والصين — محاضرات فى طوكيو بالجامعة الإمبراطورية — وفى الصين بالجامعات الوطنية فى بكين ونانكنج .

١٩٢٤ — رحلة إلى تركيا

١٩٢٦ — رحلة إلى المكسيك

١٩٢٨ — رحلة إلى روسيا

obeikandl.com

١٩٣١ ــ ١٩٣٩ ــ أستاذ شرف للفلسفة بجامعة كولومبيا

١٩٣٧ ــ رئيس لجنة التحقيق فى اتهام تروتسكى ومحاكمته فى موسكو

١٩٥٢ ــ وفاته فى أول يونية .

الرجل من مؤلفاته :

١٨٨٢ ــ أول مقالة نشرها : « الدعاوى الميتافيزيقية للمذهب المادى » The Metaphysical Assumptions of Materialism فى مجلة الفلسفة النظرية

١٨٨٧ ــ علم النفس Psychology

١٨٩٧ ــ عقيدتى التربوية My Pedagogic Creed

١٨٩٩ ــ علم النفس والمنهج الفلسفى Psychology andPhilosophicMethod

١٩٠٠ ــ المدرسة والمجتمع The School an Society

١٩٠٢ ــ الطفل والمنهج الدراسى The Child and the Curriculum

١٩٠٣ ــ دراسات فى النظرية المنطقية Studies in Logical Theory

١٩٠٨ ــ الأخلاق (مع جيمس تافتس) Ethics

١٩١٠ ــ كيف نفكر How We Think

أثر دارون فى الفلسفة The Influence of Darwin on Philosophy

١٩١٥ ــ الفلسفة الألمانية والسياسة German Philosophy and Politics

ــ مدارس الغد (مع ابنته إيفلين ديوى) Schools of Tomorrow

١٩١٦ ــ الديمقراطية والتربية Democracy and Education

ــ مقالات فى المنطق التجريبى

Essays in Experimental Logic	(طبعة ثانية معدلة لكتاب دراسات فى النظرية المنطقية)
Creative Intelligence	١٩١٧ ــ الذكاء المبدع (مع آخرين)
Reconstruction in Philosophy	١٩٢٠ ــ تجديد فى الفلسفة
Human Nature and Conduct	١٩٢٢ ــ الطبيعة البشرية والسلوك
Experience and Nature	١٩٢٥ ــ الخبرة والطبيعة
The Public and its Problems.	١٩٢٧ ــ الجمهور ومشكلاته
Characters and Events	١٩٢٩ ــ شخصيات وحوادث
Art and Education	ــ الفن والتربية (مع آخرين)
The Quest for Certainty	ــ البحث عن اليقين
Individuality Old and New	١٩٣٠ ــ الفردية قديماً وحديثاً
From Absolutism to Experimentalism	ــ مقالة « من المذهب المطلق إلى المذهب التجريبى »
Credo	ــ عقيدتى الفلسفية
Philosophy and Civilisation	١٩٣١ ــ الفلسفة والحضارة
Art as Experience	١٩٣٤ ــ الفن كخبرة
A Common Faith	ــ إيمان مشترك
Liberalism and Social Action	١٩٣٥ ــ التحرير والحركة الاجتماعية
Experience and Education	١٩٣٨ ــ الخبرة والتربية
Logic : The Theory of Inquiry	ــ المنطق أو نظرية البحث
Freedom and Culture	١٩٣٩ ــ الحرية والثقافة
Theory of Valuation	ــ نظرية القيمة
Education Today	١٩٤٠ ــ التربية فى العصر الحاضر

obeikandl.com

١٩٤٦ ــ مشكلات الناس (نشر فى طبعة ثانية سنة ١٩٥٦ بعنوان فلسفة التربية)

Probems of Men

١٩٤٩ ــ المعرفة والمعروف (مع آرثر بنتلى)

Knowing and the Known

obeikandl.com

الرجل

من سيرته

إن صحت النظرية القائلة بأن الإنسان ثمرة البيئة التى يعيش فيها ، فإنّ جون ديوى أبرز مثال على صحة هذه النظرية . فقد اجتمعت له من ميراثه الأيوى ، والإقليم الذى نشأ فيه ، والتربية التى تلقاها فى حداثته ، والأساتذة الذين طلب العلم عليهم ، والأمة التى كان فرداً من أفرادها وما لتلك الأمة من تقاليد مأثورة عن الحرية والديمقراطية ، والعصر الذى ولد فيه وترعرع فى أحضانه ، والنزعات الفلسفية والاتجاهات العلمية التى أخذت تقوى وتشتد وبخاصة الاتجاه إلى التصنيع وما تبعه من مناداة العمال بحقوقهم ونزول المرأة إلى ميدان العمل ، والتغيير المحسوس السريع الذى نتج عن ذلك فى المجتمع والأخلاق والتربية والدين والفن — نقول اجتمعت هذه العوامل كلها على تكوين جون ديوى ، فكان بذلك ثمرة هذه البيئة الثقافية والحضارية .

ومن الموافقات العجيبة أن يقع مولد جون ديوى فى عام ١٨٥٩ وهو العام الذى نشر فيه دارون كتابه « أصل الأنواع » ، ذلك الكتاب الذى لعب فى فلسفة ديوى دوراً كبيراً فيما بعد . فقد أخذ بمذهب التطور العلمى وآمن به كما ينبغى أن يؤمن به كل من يأخذ نفسه بالمناهج العلمية فى البحث ، على حين لقى هذا الكتاب معارضة عنيفة فى الشرق على يد جمال الدين الأفغانى فى كتابه « الرد على الدهريين » فأخر بذلك عجلة التقدم العلمى عدة أجيال .

ولد ديوى فى العشرين من أكتوبر فى مدينة برلنجتون بولاية فرمونت الواقعة فى شمال الولايات المتحدة الأمريكية على مقربة من حدود كندا . وهو الابن الثالث لأسرة من الطبقة الوسطى ، فأبوه من نسل المهاجرين الذين وفدوا إلى أمريكا من بلاد الفلمنك فراراً من اضطهاد الحكام، وكانوا يشتغلون بشتى

الصناعات كالغزل والنسيج والحدادة والزراعة . وليس تاريخ الأمريكيين موغلا فى القدم ، فهم سلالة ثلاثة قرون من المهاجرين الذين اعتمدوا على سواعدهم فى كسب المعاش ، وصارعوا الطبيعة حتى استنبتوا منها الزرع ، واستخرجوا من باطنها المعادن ، ولم يعتمدوا على مال موروث أو أرض ذلول . فهم أبداً فى صراع مع الطبيعة يعوّلون فى ذلك الصراع على استخدام أيديهم وسواعدهم وعقولهم . وقد ورثت الأجيال المتأخرة عن رواد المهاجرين الجرأة والإقدام ، والاعتماد على النفس ، والتحرر من التقاليد ، ومحبة الكشف والمغامرة ، واستخدام العقل البشرى فى تسخير الطبيعة ، واحترام العمل اليدوى فى كسب المعاش ، واعتبار النجاح المادى الملموس دليلا على صحة السبل المتبعة ، وهذه الصفة الأخيرة هى جوهر فلسفتهم المسماة بالبرجماتية . ومن هذا الوجه يمكن أن نعد جميع الأمريكان برجماتيين ، باعتبار أن البرجماتية تعبر عن الروح الأمريكية ، كما أن المثالية عنوان على الروح الألمانية ، والتجريبية هى السمة الغالبة للعقلية الإنجليزية ، وهكذا . ثم جاء المفكرون الذين اصطلحنا على تسميتهم بالفلاسفة فصاغوا هذه الروح البرجماتية مذهباً منسقاً ، وهذا ما فعله بيرس ، ثم وليم جيمس ، ثم جون ديوى .

كان أبوه أرشيبالد بقالاً فى برلنجتون ، على خلاف المأثور عن الأسرة من اشتغال أفرادها بالزراعة. وعلى الرغم من أن أرشيبالد لم يتلق إلا تعليماً مدرسياً بسيطاً ، إلا أنه كمّل نفسه بالاطلاع ، فقرأ شكسبير وملتون ، وكان يتغنى ببعض عباراتهما الأدبية التى حفظها عن ظهر القلب . أما أمه لوسينا رتش Lucina Rich فقد كانت أعرق نسباً وأوفر ثروة وأغزر علماً وأرهف ذوقاً . كان جدها عضواً بمجلس الشيوخ فى واشنجطون ، وأبوها قاضياً اشتهر بالعدل والحكمة ، وقد بثت الأم فى أبنائها محبة الثقافة ، والتعلق بأهداب التعليم والمضى فيه ، وهى المسئولة عن تحويلهم من الفنون العملية شطر التعليم الجامعى . ونشأ جون محباً للقراءة عاكفاً على الكتب يلتهمها التهاماً من المكتبة العامة فى المدينة . وقد أمضى

جون تعليمه الابتدائى والثانوى فى مدرسة برلنجتون العامة لاينفك عن شراء الكتب والاطلاع عليها ، وكان يحصل على المال اللازم لذلك من بيع صحيفة المساء التى تصدر فى برلنجتون ، ومن الاشتغال بترقيم الأخشاب التى ترد من كندا وتحفظ فى فناء قريب من البحيرة . هذا إلى أنه كان يشارك فى أعمال البيت ، وفى أعمال الحقل حين يذهب عند أقارب أمه فى الإجازة . وقد أثرت هذه النشأة الأولى فى فلسفته التربوية ، فذهب فيما بعد إلى أن المدرسة يجب أن تشارك فى الحياة وأن تمهد لها ، دون أن تقتصر كما كانت الحال فى القديم على موضوعات جافة نظرية بعيدة عن واقع الحياة .

ولما بلغ جون الخامسة عشرة تخرج فى المدرسة الثانوية ، والتحق بجامعة فرمونت Vermont القريبة من منزل الأسرة . فدرس خلال عامين اللغتين اليونانية واللاتينية ، والتاريخ القديم ، والهندسة التحليلية ، وحساب التفاضل والتكامل . ثم درس بعد ذلك العلوم الطبيعية ونظرية التطور ، وقرأ فى المجلات العلمية ما كانت تنشره فى ذلك الحين حول هذه النظرية التى خلبت ألباب الطلاب . وفى السنة الرابعة من الدراسة الجامعية تلقى محاضرات فى علم النفس ، وتاريخ الحضارة ، ودرس « جمهورية أفلاطون » التى أثرت فى نفسه إلى الأعماق فكتب فى سيرته الفلسفية وهى المقالة التى تحمل عنوان « من المذهب المطلق إلى المذهب التجريبى » يقول ما فحواه إن قراءته المحببة هى محاورات أفلاطون وإن الفلسفة الحق هى فى الرجوع إليه[1] . فليس من الغريب أن نجد ديوى يستعرض أفلاطون ، ويستلهمه ، وينقده نقد الخبير . ثم درس إلى جانب ذلك الفلسفة الإنجليزية وبخاصة مذهب بركلى . واطلع فى ذلك الحين من المجلات الفلسفية على فلسفة أوجست كومت ، فلم يتأثر بنتائجها بمقدار ما تأثر بروحها فى الفلسفة الوضعية ، وفى ضرورة تطبيق العلم على المجتمع وأنظمته ، وفى الصلة

(١) From Absolutism to Experimentalism, in Contemporary American Philosophy, Vol. Two, p. 21.

بين الظروف الاجتماعية وبين العلم والفلسفة . أضف إلى هذا كله الفلسفة الألمانية المثالية التى فتنته ، وبخاصة فلسفة هيجل ، وظل موالياً لها فترة طويلة حتى عدل مذهبه وتخلص منها .

ومما يجدر بالذكر أن ديوى تأثر فى تلك الفترة برجل وكتاب . أما الرجل فهو الأستاذ « تورى » الذى كان يضطلع بتدريس الفلسفة بالجامعة . كانت هواية تورى للفلسفة أصيلة ، كما كان معلماً بارعاً ، وإليه يدين جون ديوى بأمرين : الأول استقرار أفكاره نهائياً نحو دراسة الفلسفة واتخاذها غاية له فى الحياة ، والثانى قراءته عليه نصوص قدماء الفلاسفة والفلسفة الألمانية ، وذلك على الطريقة السقراطية فى الصحبة والحوار . أما الكتاب الذى أثر فى تكوينه الفلسفى فهو « علم الفسيولوجيا » تأليف الفيلسوف توماس هنرى هكسلى (١٨٢٥ — ١٨٩٥) والشارح لمذهب دارون فى النشوء والارتقاء ، فاستمد من دراسته صورة قوية عن وحدة الكائن الحى ، خلقت فى نفسه نموذجا لنظرة أشمل وأوسع للأشياء ، تلك النظرة الشاملة التى تتميز بها الدراسة الفلسفية .

ولم يكد يتخرج فى الجامعة حتى تطلع كغيره من زملائه إلى شغل وظيفة مدرس يكسب منها معاشه ، فظفر بوظيفة فى إحدى مدارس بنسلفانيا ، وأخذ يعلم اللاتينية والجبر والتاريخ الطبيعى ، واستمر فى ذلك المنصب سنتين . غير أنه لم يعدل أبداً عن الاشتغال بالفلسفة ، فكتب مقالة فلسفية بعنوان « الدعاوى الميتافيزيقية للمذهب المادى » ، نشرها الدكتور « هاريس » فى مجلته المسماة « الفلسفة النظرية » . ثم حثه تورى وهاريس على متابعة الدراسة الفلسفية فاقترض سنة ١٨٨٢ من عمة له خمسمائة دولار وذهب إلى بلتيمور والتحق بجامعة جون هوبكنز بغية الحصول على الدكتوراه . وحضر على أستاذين جليلين هما « جورج موريس » و « ستانلى هول » ، وكلاهما كان قد عاد من دراسته فى ألمانيا . وكان موريس واسع الاطلاع على تاريخ الفلسفة ، وهو الذى نقل كتاب « أوبرفج » فى تاريخ الفلسفة من الألمانية إلى اللغة الإنجليزية ، وكان

من أتباع مثالية هيجل ، وعن هذا الطريق اعتنق جون ديوى الهيجلية ، التى « تركت فى تفكيره رواسب دائمة » كما يقول . وقد شرح هذا التأثير على النحو الآتى : « تأثرت بفكرة هيجل عن المؤسسات الثقافية باعتبارها " عقلاً موضوعياً " يعتمد عليه الأفراد فى تكوين حياتهم العقلية ، كما تأثرت بكومت وكوندورسيه وبيكون . ثم هجرت الفكرة الميتافيزيقية التى تذهب إلى وجود عقل مطلق يتجلى فى النظم الاجتماعية وبقيت الفكرة ، المعتمدة على أساس تجريبى ، الخاصة بتأثير البيئة الثقافية فى تشكيل أفكار الأفراد ومعتقداتهم واتجاهاتهم الفكرية . وهذه الفكرة كانت عاملاً فى تكوين اعتقادى بأن وجود عقل أولى أسمى من العالم الطبيعى حسب الزعم الشائع فى علم النفس والفلسفة ليس لها سند تجريبى . وكانت عاملاً فى اعتقادى بأن علم النفس الممكن — المتميز عن دراسة السلوك بيولوجياً — إنما هو علم النفس الاجتماعى . أما فيما يختص بالأمور الأكثر التصاقاً بالفلسفة فإن عناية هيجل بفكرة الاتصال ووظيفة الصراع قد استمرت عندى على أسس تجريبية بعد تحول ثقتى السابقة فى الجدل إلى الشك . . . »[1] وظل الأستاذ موريس يرعاه إلى أن عينه مدرساً للفلسفة بجامعة متشجان بمرتب يبلغ تسعمائة دولار فى العام ، وذلك بعد حصوله سنة ١٨٨٤ على إجازة الدكتوراه ، وكانت رسالته بعنوان « علم النفس عند كانط » ، وهى رسالة لم تنشر ، ولا توجد منها نسخة فى الجامعة .

ولا يقل تأثير ستانلى هول عن جورج موريس فى تكوين جون ديوى ، الذى أخذ عن ستانلى هول الاتجاه الحديث فى علم النفس القائم على التجارب لا على النظر العقلى . ونحن نجد هذا الأثر واضحاً فيما أخذه ديوى عن وليم جيمس من كتابه « أصول علم النفس » ذلك أن جيمس يعتمد على تيارين، الأول : أن علم النفس هو علم الشعور ، والثانى أن علم النفس يقوم على علم الحياة . واصطنع ديوى التيار الثانى ، ورفض الأول .

وسكن ديوى وهو فى متشجان فى نزل مع زميل له ، وكان يسكن فى

(١) The Philosophy of John Dewey — edited by Schilpp — p. 17-18.

النزل نفسه شقيقتان ، إحداهما هى « أليس تشابمان » التى تزوجها ديوى بعد عامين ، فى يولية سنة ١٨٨٦ . كانت أليس تشتغل معلمة لتكسب معاشها ، وأثرت فى زواجها أثراً عظيما ، فهى محبة للعلم ، صافية الذهن ، رقيقة القلب ، تتميز بفيض من الشجاعة والحيوية . وكانت تحمل فى نفسها ثورة على الأوضاع الاجتماعية وما فيها من مظالم، فدفعت زوجها من الاهتمام بالفلسفة الكلاسيكية إلى مشكلات الحياة المعاصرة ، كما أنزلته من سماء النظريات إلى عالم البشر وجعلت لهذا العالم معنى . وقد أنجب منها ستة أولاد بين ذكور وإناث . وقد سميا طفلهما الثالث باسم موريس إحياء لذكرى أستاذه ، غير أن هذا الطفل مات وهو فى الثانية والنصف من عمره مريضاً بالدفتريا ، فأحدث موته « فى نفس والديه جرحاً لم يندمل »[1] . فلم يكن ديوى يحب أبناءه حبًّا غريزيًّا فطريًّا فحسب ، بل حبًّا فلسفيًّا هو ثمرة ملاحظته إياهم وتتبع نموهم ومشاهدة سلوكهم مما كان له أكبر الأثر فى تكوين نظرياته عن نفسية الأطفال وطبائعهم . فضلا عن نظريته الفلسفية فى صياغة المجتمع والأخذ بيده عن طريق التربية . ولا غرو ، فإن ديوى فى نظر كثير من المؤرخين والنقاد فيلسوف تربية قبل كل شىء . ومما يروى عن فرط محبته للطفولة أنه ألف كتابه المشهور « الديمقراطية والتربية » وهو يحمل طفله على إحدى ركبتيه ويضع الورق الذى يكتب فيه على الأخرى .

وفجعه القدر فى صبى آخر توفى وهو فى الثامنة ، وكان ديوى فى رحلة إلى أوربا . حيث ركب البحر من مونتريال إلى ليفربول ، فأصيب ابنه بالتيفود على ظهر السفينة ، وأدخل الطفل مستشفى فى ليفربول حتى أبل من مرضه ، ولكنه لم يكد يبارح المستشفى حتى انتكس ومات . وصحبت الأم أبناءها الآخرين إلى إيطاليا ، وعاد ديوى إلى كولومبيا للتدريس على أن يلحق بأسرته فى الصيف القادم فى إيطاليا ، وهناك تبنى طفلا إيطاليًّا اسمه « سابينو » يقرب من سن ابنه الذى توفى حديثاً . وسابينو هذا هو الذى قام فيما بعد بالمهام العملية التى يقوم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤

بها ديوى فى التعليم الابتدائى ، كما أن ابنته الكبرى « إيفلين » كتبت مع والدها كتاب « مدارس الغد » وكتاب « مدارس جديدة بدلا من القديمة » ، وابنته « جين » هى التى كتبت سيرة حياته التى ننقل عنها ، ورجعت إليه فى كثير من أجزائها . وهذه المشاركات العملية بين ديوى وبين أبنائه إنما تدل على حبه الشديد لهم ، وحبه الخير للطفل عامة .

اتصل ديوى وهو فى فجر حياته العملية بشخصيتين كان لهما أثر عظيم فى آرائه . الأول هو « جيمس تافتس » Tufts الذى عرفه حين كان فى متشجان ، فاشتغلا معاً ، وتعاونا على التفكير والتأليف . ولما ذهب « تافتس » إلى جامعة شيكاغو دعا ديوى إلى الاشتغال معه ، فقبل التدريس بها سنة ١٨٩٤ ، وأثمر تعاونهما تأليف كتاب « الأخلاق » الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٨ . وقد درس « تافتس » فى ألمانيا ، وهو الذى نقل كتاب « وندلباند » فى تاريخ الفلسفة إلى اللغة الإنجليزية .

ولما خلا منصب « تافتس » فى متشجان حل محله الأستاذ « جورج هربارت ميد » Mead الذى يعد من أقطاب البرجماتية ، والذى ظل حتى وفاته عام ١٩٣١ صديقاً حميما لديوى . وكان « ميد » يهتم أعظم الاهتمام بالأثر البيولوجى على الظواهر النفسية ، لا من جهة الصلة بين المخ والنفس بل من جهة الصلة بين الكائن الحى فى جملته حين يوضع فى بيئة يستجيب لمؤثراتها ويؤثر فيها ، ويصبح الجهاز العصبى عضواً ينظم العلاقة بين الكائن والبيئة ، ويمكن وصف التفكير ذاته من هذه الزاوية . واعتمد ديوى على هذه النظرية وطبقها على فلسفته ونظرياته فى علم النفس .

ومن جملة الأسباب التى جعلت ديوى يقبل منصب التدريس فى جامعة شيكاغو انضمام قسم التربية إلى قسم الفلسفة وعلم النفس . فهو يعترف فى سيرته بأن التربية أول الأمور التى تميز بها تفكيره الفلسفى ، وفى ذلك يقول : « أول الأمور فى تطور تفكيرى أهمية التربية نظرياً وعملياً فى نفسى ، وبخاصة تربية

الصغار ، لأننى لم أشعر أبداً بتفاؤل كثير فيما يختص بإمكان التعليم « العالى » إذا بنى هذا التعليم على أسس ضعيفة . وقد اندمج هذا الاهتمام بالاهتمام بعلم النفس والمؤسسات والحياة الاجتماعية ، وسار معها جنباً إلى جنب وقد كان يمكن أن تظل هذه الاهتمامات منفصلة . . »[1]

أنشأ ديوى وهو فى شيكاغو مدرسة أولية يقوم التعليم فيها على أسس تختلف مما جرى عليه العرف ، وعاونه فى ذلك جماعة من الآباء يرغبون لأبنائهم هذا الضرب الجديد من التعليم ، فأمدوه بالمال والتأييد الأدبى . وأنشئت المدرسة تحت إشراف قسم الفلسفة الذى كان رئيسه فى الجامعة ، وسميت باسم « المدرسة المعملية » Laboratory School ، ولو أن اسمها الذى جرى على ألسنة الناس هو « مدرسة ديوى » . وسميت المدرسة « معملا » لأنها كانت بالإضافة إلى تعليم الفلسفة وعلم النفس والتربية كمعامل للطبيعة والكيمياء ، ولم يكن الغرض منها أن تكون مدرسة تجريبية ، أو عملية ، أو تقدمية ، كما توصف المدارس الحديثة اليوم . وبلغ من رغبة ديوى النجاح لهذه المدرسة وتمويلها ، إذ لم تكن الجامعة تمنحها إلا مقداراً يسيراً من المال ، أنه ألقى محاضرات فى التربية يعين بأجرها مشروعه ، وهذه المحاضرات هى التى طبعها فى كتاب « المدرسة والمجتمع » الذى طبع عدة مرات وترجم إلى بضع عشرة لغة أجنبية .

وأثمرت إقامته فى شيكاغو واشتغاله رئيساً لقسم الفلسفة بجامعتها ثماراً فلسفية إلى جانب ما أنتجه فى التربية . فقد اتجه إلى تنمية مذهبه فى الأخلاق وعلم النفس والمنطق ، فألقى خلال ثلاث سنوات ثلاثة موضوعات تدور حول الأخلاق وهى « منطق الأخلاق » ، و « الأخلاق الاجتماعية » و « الأخلاق النفسانية » ، وهذا الموضوع الأخير هو الذى كان أساس كتابه المشهور المعروف باسم « الطبيعة البشرية والسلوك » . وكان قد تفرغ للتدريس لطلبة الدراسات العليا ، واتخذ منهم حلقة تتردد بينه وبينهم أصداء الفكر ، وتتطاير من احتكاك عقولهم شرر المعرفة . لقد أحيا بذلك سنة المدارس الفلسفية القديمة

(١) من سيرته بعنوان From Absolutism to Experimentalism. p. 22.

كالأكاديمية والمشائية ، وأصدرت المدرسة مجتمعة سنة ١٩٠٣ كتاباً بعنوان « دراسات فى النظرية المنطقية »[١] ، وهو عبارة عن أحد عشر فصلا ، أربعة من قلمه وسبعة بقلم زملائه وتلاميذه ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب فيما بعد بعنوان آخر هو « مقالات فى المنطق التجريبى »[٢] . وحين أصدر الكتاب فى طبعته الأولى رحب به وليم جيمس وأعلن عن مولد « مدرسة شيكاغو » صاحبة الاتجاه البرجماطيقى . ويمتاز هذا الاتجاه بالنزعة « الأداتية Instrumental »، وهى النزعة التى اشتهر بها جون ديوى وأصبحت عنواناً على مذهبه . وينبغى أن نعد كتابه العظيم « الديمقراطية والتربية » الذى أصدره سنة ١٩١٦ وهو يدرس فى جامعة كولومبيا من ثمار تجاربه فى شيكاغو ، وأودع فيه خلاصة آرائه فى الفلسفة والتربية ، وقال عنه فى سيرته إنه الكتاب «الذى عبّر سنين كثيرة عن فلسفتى أكمل تعبير »[٣] .

ولم تطب له الإقامة فى شيكاغو بعد أن اختلف مع مدير الجامعة حول إدارة « المدرسة المعملية » ، إذ ضمت الجامعة إليها معهداً للتربية لتخريج المدرسين ، وكانت هناك مدرسة ابتدائية ملحقة به ، فتعارضت المدرستان ، ولم يقبل ديوى أن يرى غرس يديه يذوى فاستقال سنة ١٩٠٤ ، وكتب إلى وليم جيمس فى هارفارد وإلى « كاتل » Cattell فى كولومبيا يخبرهما بما انتهى إليه أمره ، فعمل كاتل على تعيينه فى جامعة كولومبيا إلى جانب التدريس كذلك بكلية المعلمين « Teachers College » . وظل بتلك الجامعة إلى أن أحيل إلى الاستيداع سنة ١٩٣١ . وكان من الطبيعى أن تتغير آراؤه بسبب اتصاله بالبيئة الجديدة واحتكاكه بأساتذة لهم اتجاهات مختلفة . كان رئيس قسم الفلسفة هو الأستاذ وودبردج Woodbridge الذى تزعم الحركة الواقعية فى

(١) Studies in Logical Theory, Chicago, 1903.

(٢) Essays in Experimental Logic. Chicago, 1916.

(٣) From Absolutism to Experimentalism, p. 23.

الفلسفة معتمداً على الميتافيزيقا الأرسطية . وكانت هناك حركة أخرى مثالية اتبعها ديوى زمناً حين كان من السائرين على نهج الهيجلية ، حتى عدل عن الأخذ « بالمطلق » . واتفقت آراء وودبروج مع اتجاه ديوى الجديد من هذه الناحية . وفى الوقت نفسه انقسم الواقعيون على أنفسهم فريقين ، أحدهما يقول بالكثرة والتعدد وعلى رأسهم وليم جيمس ، والآخر يقول بالواحدية . واضطرب ديوى بين التيارين فأخذ بمذهب الكثرة فى ابتداء الأمر ، ولكنه انتهى إلى ميتافيزيقا تعتمد على الواحدية Monism .

مهما يكن من شىء فقد خرج ديوى بعد هذه السنوات من البحث والتفكير إلى تعديل فى فلسفته أعلنه فى كتابه « تجديد فى الفلسفة » وهى المحاضرات التى ألقاها فى طوكيو ، وفى كتابه « البحث عن اليقين » وهى محاضرات ألقاها فى أدنبرة سنة ١٩٢٩ ، وسار بعد ذلك فى هذا الطريق الجديد .

ونبغ من تلاميذ ديوى فى كولومبيا عدد كبير يعدون اليوم من طليعة فلاسفتهم ، مثل راندال ، وإيدمان ، وكلبا تريك ، وتشايلدز ، وهوك ، وراتنر ، وغيرهم . وبذلك يمكن أن نعد ديوى صاحب مدرسة بمعنى الكلمة تحمل لواء مذهب فكرى فى الفلسفة والتربية والاجتماع والتاريخ . وجوزيف راتنر هو الذى جمع عدة مقالات لديوى نشرها فى مجلد بعنوان « العقل فى العالم الحديث » مع مقدمة طويلة عن فلسفته . أما « هوك » فقد راجع معظم مؤلفات ديوى الأخيرة قبل طبعها . ومن الأمور التى أعانت على بعث الحياة فى كتابات ديوى أن معظم كتبه الهامة عبارة عن محاضرات ألقاها على الطلبة فى الجامعات المختلفة كما ذكرنا من قبل ، أو هى مقالات فى المجلات الفلسفية تعد رداً على آراء غيره من المفكرين ، أو هى ضرب من الحوار والجدل على الطريقة الأفلاطونية . والفلسفة الحقة فيما يؤثر عن أفلاطون أنها ثمرة الحوار ومشاركة الرأى واحتكاك الفكر بالفكر مع الحرية فى قبول النقد ، ورد الحجة بالحجة . فقد كان البحث عند أفلاطون كما صوره فى المحاورات : « دراماتيكياً ،

غير مستقر ، متعاوناً ، وكان أفلاطون فى هربه الشديد من الميتافيزيقا ، ينتهى دائماً إلى وجهة اجتماعية وعملية »[١] .

ولم يقف نشاط ديوى عند الفلسفة أو التربية أو علم النفس بل تجاوزها إلى السياسة ، فقد كان من المؤمنين إيماناً عميقاً بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا ، ودافع عنها أروع دفاع ، كما أرسى قواعدها على أسس فلسفية ، ووصلها بالتربية حتى ينشأ الطفل منذ صغره على عشق الديمقراطية ومحبة الحرية ، ليكون سلوكه فى الحياة حين يشتد ساعده ويدخل فى طور الشباب والرجولة صادراً عن ديمقراطية أشربت بها نفسه ونزلت منه منزلة الطبع . وبذلك تكون الديمقراطية فى الدولة ديمقراطية حقيقية وليست صورية يتشدق بها صاحبها ولا يعمل بها . بدأ ديوى يحاضر فى الفلسفة السياسية ويناقش نظريات « الحق الطبيعى » عند جماعة أصحاب المنفعة من فلاسفة الإنجليز ، وغيرهم من المدارس ، وتعرض لمذاهب السيادة والحقوق والواجبات السياسية عند أقطاب المفكرين من أمثال هوبز ولوك وروسو ، ومبادئ الثورة الفرنسية فى الحرية والإخاء والمساواة . وانتهى ديوى إلى أن مقتضيات العصر الحاضر تستلزم أن تقوم الديمقراطية الصحيحة على ديمقراطية تسود النظام الاقتصادى والصناعى . كذلك دافع ديوى عن الديمقراطية فى عصر سادت فيه الرأسمالية واصطدمت الحريات السياسية والاجتماعية بسلطان المال ونفوذ الشركات وبخاصة فى نيويورك التى كان يعيش فيها ويدرس بها . ولكنه قد ورث النزعة الديمقراطية وعاش فيها عندما كان فى برلنجتون ، تلك الديمقراطية التى انحدرت مع سلالة المهاجرين وتيسر الاحتفاظ بها بعيداً عن زحمة المدن الكبرى . ولذلك رأى الاحتفاظ بهذا التراث حيّاً فى القلوب عن طريقين ، الأول هو التربية حتى أصبح شعار المعلمين هو « التربية للديمقراطية والديمقراطية فى التربية »[٢] . والثانى هو تحرير المرأة وحصولها على

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ ، من وصف ديوى لأفلاطون وكيف تأثر به .

(٢) "Education for Democracy and Democracy in Education".

حقها فى الانتخاب ، لأن تحرير المرأة جزء لا يتجزأ من الديمقراطية السياسية .

ولا ريب أن رحلات ديوى إلى البلاد الأجنبية كانت من أسباب تطور آرائه السياسية والاجتماعية . كانت الرحلة إلى الخارج تقليداً ولا يزال سائداً فى أمريكا لتزويد أساتذة الجامعات بخبرة واقعية عن الحياة فى العالم الذى يعيشون فيه . وقد ذكرنا رحلة ديوى من قبل إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا. ولم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى حتى ذهب إلى اليابان يلقى محاضرات فى جامعة طوكيو بدعوة من صديقه الدكتور « أولز » الذى عرفه حين كان يدرس الاقتصاد السياسى فى أمريكا ، وأصبح من الرجال البارزين فى الحكومة . وطبعت هذه المحاضرات فى كتابه « تجديد فى الفلسفة » الذى جاء فى مقدمة طبعته الأولى إن الغرض منها عرض المباينات العامة بين النماذج القديمة والحديثة فى المشكلات الفلسفية . ثم دعى وهو فى اليابان إلى إلقاء محاضرات فى الصين. وتسنى له خلال إقامته أن يطلع على بواكير حركة النهضة والتحرير فى الصين وقوة الرأى العام الممثلة فى طلبة الجامعات وإضرابهم احتجاجاً على الحكومة للتخلص من نفوذ اليابان . وساهمت زوجته فى حركة تحرير المرأة الصينية ومطالبتها بالتعليم كالذكور . وفى الصين زاد إيمان ديوى بأن التربية هى السبيل إلى إحداث الثورة الاجتماعية والتقدم بالأمة من أسر التقاليد البالية التى لم تعد تلائم العصر الحاضر ، وذلك بعد أن شهد خمائر الثورة العاملة فى البيئة المدرسية . فلما ذهب إلى تركيا عام ١٩٢٤ وإلى المكسيك عام ١٩٢٦ ازداد إيماناً على إيمان ، ورسخت فى نفسه العقيدة بأن التربية هى القوة الفعالة فى الظفر بالتغييرات الاجتماعية الثورية التى تأخذ بيد الفرد، وتضمن رقيه ورفاهته، إن شئنا أن تكون هذه التغييرات جدية مثمرة، لا مجرد تغيير زى بزى آخر ، دون أن تصدر هذه النظم الاجتماعية الجديدة عن إرادة الشعب ومحض حريته، فلا تؤثر أثرها، ولا تؤدى الغرض المقصود منها .

وزار ديوى روسيا السوفييتية عام ١٩٢٨ فاطلع على الثورة السائرة فى طريقها بقوة ديناميكية جبارة ، ووصفها كما ينبغى أن يفعل الفيلسوف حين

يطلب الحق لذاته ، وكتب عدة مقالات تفيض بالعطف على الحركات التقدمية التى شاهدها مما جعل الصحافة فى ذلك الحين تصمه بالدعوة البولشيفية ، وتطلق عليه « ديوى الأحمر » . ذهب إلى روسيا فى صحبة جماعة من أساتذة التربية فى أمريكا للاطلاع على نظم السوفييت فى التعليم ، فالتقى بكثير من مربيهم وأساتذتهم وطلابهم ، ولمس فيهم الإيمان العميق بأن التربية التى تهدف إلى خدمة المجتمع والتى تقوم على التعاون هى السبيل إلى تحقيق أهداف الثورة ، وبناء أمة جديدة قوية . وكانت فلسفة روسيا تذهب إلى تغيير النظم الاقتصادية والسياسية مما يفضى فى نهاية الأمر إلى تحرير جميع الأفراد ، وإطلاق ما فيهم من مواهب وقوى كامنة .

وأدت زيارته إلى روسيا إلى انغماسه بعد ذلك فى الاطلاع على شئونها السياسية الداخلية بسبب محاكمة تروتسكى المشهورة . فقد كان تروتسكى من زعماء الثورة الروسية الذى مهد لها مع لينين ، وعين سنة ١٩١٧ بعد نجاح الثورة قوميسيراً للشئون الخارجية . ولما توفى لينين عام ١٩٢٤ أقصاه ستالين من الحزب وطرده منه سنة ١٩٢٧ ثم حوكم ونفى سنة ١٩٢٩ فلجأ إلى المكسيك وظل بها حتى توفى سنة ١٩٤٠ وقد انقسم الناس فى وقت محاكمة تروتسكى فريقين ، وبخاصة فى روسيا ذاتها ، فريق يتبع ستالين وفريق يؤيد تروتسكى ؛ وقد قضى على الستالينية أخيراً عندما أعلنت الحكومة السوفييتية سنة ١٩٥٧ الخروج على مبادئه بعد وفاته . وخلاصة هذا المذهب هو تركيز السلطة كلها فى شخص واحد ، أو « عبادة الفرد » . أما التروتسكية فكانت تفسر المذهب الشيوعى على أساس دولى ، وأن الطبقة العاملة فى جميع أنحاء العالم يجب أن تتحرر ليصل الفرد حقاً إلى الديمقراطية . والذى يعنينا من ذلك أن ديوى كان عضواً فى محاكمة تروتسكى ، فرأى الفرصة مناسبة للاطلاع على تلك المذاهب السياسية وحقيقة المحاكمات التى تجرى فى داخل روسيا . وخرج ديوى من هذه المحاكمة بأن التروتسكية والستالينية على حد سواء يهدفان إلى تحقيق أغراضهما بالقوة

والدكتاتورية ، وكلاهما يلغى حرية الفرد التى ظل ديوى طول حياته يدافع عنها بعقيدة راسخة .

يتضح من هذا العرض لسيرة الرجل أن حياته كانت حافلة بالكفاح الفكرى للدفاع عن مذهبه الفلسفى ، وآرائه الجديدة . ولم يكن ذلك المذهب ثمرة تأمل مفكر يعيش فى برج عاجى منعزلا عن الناس والعالم ، بل نتيجة الاتصال المباشر الوثيق بالناس والمجتمع فى جميع أنحاء العالم ، والإحساس بالتطور العلمى أو قل الثورة العلمية التى خطت خطى جبارة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، والتى نشهد نتائجها ونعيش فيها . غير أن التقدم فى العلوم الرياضية والطبيعية والبيولوجية ، لم يصحبه تقدم فى العلوم الإنسانية فكان لابد من ظهور فيلسوف ينعم النظر فى تحقيق هذه الصلة بين التيارين ، ويعمل على التوفيق بينهما . وهذا ما فعله ديوى . وقد صور لنا تطور تفكيره ، ولخصه فى أمور أربعة ، هى :

١ — الاهتمام بالتربية نظريًّا وعمليًّا ، وبخاصة الصغار ، وأن التفلسف يجب أن يدور حول التربية من جهة أنها تاج الاهتمامات الإنسانية .

٢ — إخراج منطق جديد يلغى الثنائية القائمة بين منهج للعلوم ، ومنهج آخر للأخلاق ، باعتبار أن العلم هو التفكير النظرى ، والأخلاق هى السلوك العملى . هذا المنهج الجديد هو الذى سماه « الأداتية » .

٣ — تخليص علم النفس من النزعات الميتافيزيقية والبحث فى الشعور ، وتطبيق العلوم البيولوجية على دراسة نفسية الإنسان .

٤ — تطبيق العلم الحديث ومناهجه على العلوم الاجتماعية مثل الأنثر وبولوجيا والتاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد ، واللغة والأدب ، وغير ذلك[1] .

ولتحقيق هذه الأهداف كتب مؤلفاته العديدة ، ومقالاته الغزيرة[2] التى

---

(١) From Absolutism to Experimentalism — p. 22-26.

(٢) فى الطبعة الثانية من كتاب شيلب ثبت واف بمؤلفاته ومقالاته من صفحة ٦١١ إلى صفحة ٦٨٧ .

لم ينقطع سيلها إلى أن انطفأت شعلة حياته فى يونية سنة ١٩٥٢ ، ولا تزال هذه الشعلة متقدة بنور الحقيقة التى دأب على البحث عنها .

* * *

ونلاحظ أن هذا التصوير لتطور تفكيره قد كتبه سنة ١٩٣٠ . ثم عاش بعد ذلك اثنين وعشرين عاماً لا ريب أنه تطور تطوراً آخر ، لم يكن حاسماً حتى يعد انقلاباً كذلك الذى جرى له من المذهب المطلق إلى المذهب التجريبى ، ولكنه يعد تعديلا فى بعض النتائج والاتجاهات التى وصل إليها . وهو نفسه يعترف بهذا التطور فى مقدمتين كتبهما لكتابين صدرا فى أواخر حياته . الكتاب الأول هو « مشكلات الناس » الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٦ . وهو عبارة عن مقالات كتبها فى مناسبات مختلفة فى شتى المجلات الفلسفية . ومعظمها كتب فى أثناء الحرب العالمية الثانية . يقول فى التمهيد لهذا الكتاب : « من الطبيعى أن شيئاً من التعديل قد حدث لموقفى من شتى الأمور الفلسفية على مر السنين . ولا ريب أن المقالات التى صدرت أخيراً أقرب إلى تمثيل آرائى الحاضرة . أما المقالات الأقدم زمناً ، فإنها نظراً لمرور وقت طويل عليها جديرة بإعادة طبعها باعتبار أنها تبشر بالاتجاه الذى سلكته خلال الخمسين السنة فيما بين ذلك » . فالاتجاه العام لفلسفته أصبح واضحاً فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وأخذ بعد ذلك ينسج مذهبه شيئاً فشيئاً ، وعاماً بعد آخر . وهو يؤكد فى مقدمته الجديدة لكتاب « مشكلات الناس » أن المسألة الرئيسية فى الفلسفة اليوم هى البحث فى القيم ، وتطبيق المنهج العلمى عليها .

والكتاب الثانى هو « تجديد فى الفلسفة » صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٠ ، وطبع مرة ثانية سنة ١٩٤٨ ، فقدم له بمقدمة طويلة جعل عنوانها : «التجديد كما أراه بعد خمسة وعشرين عاماً » واقترح أن يغير عنوان الكتاب من « تجديد الفلسفة » إلى تجديد فيها ، فهو تجديد التجديد . والذى دفعه إلى ذلك هو التغير السريع فى جميع أمور الإنسان تغيراً لم يسبق له فى التاريخ مثيل .

والتقدم الملموس الهائل. يريد التقدم العلمى الذى لم يصحبه تقدم مماثل فى الأخلاق والاجتماع . أما الفلسفة فإنها تحتاج إلى معاودة النظر فى نظرية المعرفة بوجه خاص . ونحن نرى من ذلك أنه عدّل فلسفته ولكنه لم يعدل عنها . بدّل ولم يتبدل ، وعدّل ولم يعدل ، وبقيت الخطوط العامة الرئيسية التى صوّرها عن فلسفته فى النقط الأربع ، وهى التربية والأداتية وعلم النفس وعلم الاجتماع ، هى الخطوط المعبرة حقًّا عن اتجاه فلسفته ، ولهذا السبب سننسج على منوالها عند الكلام على جوانب الرجل ، احتراماً لتصويره الذى صَوَّره لنفسه .

نقول ذلك لأن المنطق كان يقتضى أن نبدأ بالكلام عن منهج الرجل ، وهو « الأداتية » باعتبار أن المنهج هو السبيل إلى المذهب من جهة ، وأنه أهم من المذهب من جهة أخرى . والحق ، يعد ديوى صاحب منهج قبل كل شىء ، وهذا ما يجعله فيلسوفاً يشغل منزلة مرموقة بين المعاصرين من الفلاسفة . وهو نفسه قد وصف نفسه بأن فلسفته هى « التجريبية » . ولا خلاف فى القول عن منهجه إنه التجريبية ، أو الأداتية ، أو البرجماتية ، فهى مظاهر مختلفة لمنهج واحد رئيسى ، نبع فى أمريكا باسم البرجماتية ، وسيأتى تفصيل ذلك فى حينه .

ولكننا احتراماً لوصية الرجل سنبدأ بالكلام عن جانب « المربى » فيه .